شمس المعالي قابوس بن وشمكير (٢)

ورسائله المجموعة باسم (كمال البلاغة)

فصل مقتبس من (التاريخ اليميني) لابي نصر العتبي ، و (العبر) لابن خلدون ،
و (الكامل) لابن الاثير ، و (عيون التواريخ) لابن شاكر
و (وفيات الاعيان) لابن خلكان ، و (اليتيمة)
للثعالبي ، وغير ذلك

بيت قابوس

الامير (شمس المعالي قابوس بن وشمكير) ملكٌ من ملوك الديلم على جرجان وطبرستان في القرن الرابع للهجرة . وصلت مقاليد الملك الى يد أسرته بثورة عمه (مرداويج بن زيار الجيلي) على سيده (أسفار بن شيرويه الديلي) سنة ٣١٦ ، وكان

---

(١) المراد الثلاجة بالمثلّثة كما تقدّم . (٢) كتبت هذه المقالة وارسلت الينا قبل طبع (كمال البلاغة) فتأخرت الى الآن لكثرة المواد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مرداويج قبل ثورته أميراً على جيش أسفار . ثم انتقل ملك مرداويج سنة ٣٢٣ الى أخيه (وشمكير) والد قابوس

ولم يكن لوشمكير وأخيه مرداويج ماضٍ تليد في النُبْل والحُكْم ، بل كانا قرويين ساذجين يزرعان الارز في حقول بلاد جيلان . وانفصل مرداويج عن أخيه وشمكير ، فالتحق بخدمة جيوش المشرق ، الى أن صار قائد جيش (أسفار) فثار عليه

وقد أورد ابن الأثير (في حوادث سنة ٣٢٠) ما قاله ابن الجعد في وصف وشمكير لما لقيه في حقول الارز ، وكان ذهب اليه رسولاً من قِبَل اخيه مرداويج ليقنعه بترك الفلاحة ومشاركته في ادارة الملك الجديد

أشيرُ الى ذلك ليعلم القارئ الفرق بين ما كانوا فيه وبين ما ذكره ابن خلدون (٣:٤٠٢ و٤:٤٢٩) من اتخاذ مرداويج كراسيّ من ذهب وفضة ، ولبسه التاج مظنة تاج كسرى ، واعتزامه الاستيلاء على العراق وتجديدَ قصور كسرى بالمدائن! ...

وأرى أن منزع هذه الاحلام الشعوبية أنانيةُ مرداويج ، وليس لعصبية النسب دخل فيها ، لان الرجل ديلمي لا يمتّ الى الاكاسرة وقومهم بصلة . ولما كُتب له الفوز على سيده (أسفار) التفّ حوله الديلم وقوّادهم ، حتى لقد كان من أتباعه آل بويه الثلاثة ، وكان الحسين ابن العميد والد أبي الفضل وزيراً لوشمكير في الريّ

وأفضى ملك وشمكير في المحرّم سنة ٣٥٧ الى ابنه ظهير الدين ابي منصور بهستون ، حتى اذا توفي سنة ٣٦٦ تبوّأ (قابوس) سرير أبيه وعمه وكان ذلك في خلافة أمير المؤمنين الطائع لله العباسي

حياة قابوس :

ولد قابوس في أحضان الثراء والنعمة . وارتشف صفات الرجولة من ينبوعها : أعني العصاميين أباه وعمه . وعلّمته التجاريب التي مرّت على بيتهم — زمن عمه وأبيه ، ثم في عهد أخيه — أن نوال المعالي ، منوط بسهر الليالي . فنشأ جامعاً لرقة الرخاء الذي ولد فيه ، وخشونة الحروب التي تقلبت عليهم — مع آل بويه وغيرهم — مدّة أبيه . وأكسبته تصاريف السياسة بصراً بالعواقب ، مقروناً اليه سوء الظن بالناس ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فكان بسبب ذلك كيّساً حازماً مستبداً

ولما توفي اخوه بهستون سنة ٣٦٦ كان قابوس عند رستم بن المرزبان بجبل شهريار. وترك بهستون ابناً صغيراً بطبرستان في كفالة جدّه لامه ، فطمع له جدّه في الملك ، وبادر به الى جرجان ، وقبض على من كان عنده ميلٌ الى قابوس من القوّاد . وفي خلال ذلك وصل قابوس الى جرجان ، فخرج الجيش اليه ، واجتمعوا عليه ، وملكوه . وهرب انصار ابن بهستون ، فكفله عمه قابوس وجعله اسوة بنيه . وقام بأعباء الملك ، فأنفذ اليه أمير المؤمنين الطائع لله الخلعَ السنية والعهدَ على طبرستان وجرجان ، ولقّبه « شمس المعالي »

وفي السنة التي مات بها بهستون أخو قابوس مات ملك آخر عظيم السلطان في المشرق ، وهو ركن الدولة ابن بويه ، فنشأت هنالك فتنة بين عضد الدولة ابن بويه واخيه فخر الدولة ، واستولى الاول على بلاد الثاني غير محترم وصية ابيه له في اخوته . فلجأ فخر الدولة الى قابوس ، ورعى قابوس جواره فأبى ان يسلمه الى أخيه ، فأدّى ذلك الى اكتساح عضد الدولة مملكة قابوس سنة ٣٧١ واستيلائه عليها ، فخرج قابوس منها لاجئاً الى خراسان وأقام فيها الى سنة ٣٨٨

ويقول ابن العتبي — المعاصر لقابوس — واصفاً حالته النفسية في المدة التي فقد فيها ملكه : « أقام قابوس بخراسان ثماني عشرة سنة مصابراً للدهر على وقعاته ، وتصرّف حالاته . لم تغمز يد الحادثات قناته ، ولم يقرع صرف النائبات صفاته . ولم تنقص دوائر الايام مروته ، ولم تنقض صبوته . ولم يبق من اصحاب الجيوش وزعماء الجمهور من لم يضرب له بسهم من نوافله ، ولم يرجع الى حظّ من عطاياه وفواضله ، فعلى الاكتاف خلعه ولباسه ، وتحت الانخاذ مراكبه وأفراسه ، وحشو البيوت بدره وأكياسه »

وفي خلال نكبة قابوس توفي مؤيد الدولة بن بويه — الذي كانت مملكتا فخر الدولة وقابوس تحت يده — فاستولى فخر الدولة عليهما سنة ٣٧٣ . وقد تقدّم أن وفاء قابوس لفخر الدولة كان سبب نكبته وزوال سلطانه ، فلما صارت مملكة قابوس الى فخر الدولة صار حقاً عليه في شرع المروءة أن يردّه اليه ، وان يزيده عليه ، مكافأة على ما تقدم من فضله . ولكن فخر الدولة ابن بويه لم يفعل ذلك ، ويقال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

انه شاور في الامر وزيره الصاحب بن عباد فثناه عن انفاذه . ولكن هذا الواجب ليس مما يجوز فيه التردد أو يحتاج فيه الى مشورة

وفي مجموعة رسائل قابوس — التي تدعى كمال البلاغة — رسائل كثيرة دارت بينه وبين الصاحب ابن عباد يتقاضى بها قابوس أمراً خطيراً من الصاحب ، ولا ريب عندي في ان ذلك كان في موضوع ملك قابوس ومطالبته به

ومات فخر الدولة ابن بويه سنة ٣٨٨ دون ان ينال قابوس منه مأربا ، وخلفه على البلاد ابنه مجد الدولة — وكان امر الحكم الى والدته — فاخذ قابوس يستمد لاسترداد حقه بالقوة . فلما كانت السنة التالية جهز حملة عسكرية بقيادة خاله الاصبهبذ حاربت رستم بن المرزبان — خال مجد الدولة — في جبل شهريار فتغلبت عليه ، واستولى الاصبهبذ على الجبل ، وخطب فيه لشمس المعالي قابوس . ثم جهزت حملة ثانية على (آمد) بقيادة ابن سعيد فاستولى عليها وخطب فيها لقابوس

ولما أشرق نجم قابوس كتب اهل جرجان اليه يستدعونه فسار اليهم من نيسابور ، وزحفت حملتا الاصبهبذ وابن سعيد لتعضيده ، ودخل قابوس مدينة جرجان في شعبان سنة ٣٨٨ بعد ان لقي دفاعاً ضئيلاً من حاميتها . وحاولت جيوش مجد الدولة انتزاعها منه بعد ذلك ففشلت

ومن الحوادث المهمة في حياة قابوس ان خاله الاصبهبذ اغترّ بما ناله قابوس من معونته في استرداد ملكه ، وحدّث نفسه بالملك . وفي كتاب (كمال البلاغة) رسالة من قابوس اليه كتبها في خلال هذه الازمة وكلها ترغيب وترهيب . وقد اتفق يومئذٍ أن رستم بن المرزبان كان مستوحشاً من ابن اخته مجد الدولة ابن بويه فأراد رستم ان يبرهن لقابوس على اخلاصه له فسار بعساكره من الري قاصداً الاصبهبذ فهزمه وأسره ، واظهر دعوة قابوس بالجبل فانضافت هذه المملكة الى مملكة جرجان وطبرستان وولي قابوس عليها ابنه منوجهر ففتح بعض الري . وقارن ذلك استيلاء محمود بن سبكتكين على خراسان ، فراسله قابوس وهاداه وصالحه على سائر اعماله

فلك ان تصاريف السياسة جعلت قابوس كيّساً حازماً مستبداً . ومن شواهد ذلك انه لما زال عنه الملك بين سنتي ٣٧١ و٣٨٨ اختزن في قلبه قسوة على كثير من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الناس ، حتى اذا عاد اليه سلطانه ، واستحال ملكه ، صار — كما يقول ابن خلدون — شديد السطوة ، مرهف الحدّ . واسرف في القسوة والاستبداد اسرافاً اكسبه بغض شعبه له ، ووحشة نفوس جنده منه ، فأدّى هذا الامر به وبهم الى قيامهم عليه واجماعهم على خلعه . وكان قابوس في اثناء ذلك باحدى القلاع فامتنع عليهم وانتهبوا موجوده ورجعوا الى جرجان مجاهرين بالثورة . واستدعوا ابنه (منوجهر) من طبرستان فأسرع اليهم مخافة ان يولوا غيره . واتفقوا على طاعته بأن يخلع اباه ، فأجابهم الى ذلك كرهاً

وسار قابوس من حصنه الى بسطام يقيم بها حتى تضمحل الفتنة . فساروا اليه ، واكرهوا منوجهر على السير معهم . فلما اجتمع الولد ووالده وقف قابوس على حقيقة الحال فآثر ان ينفرد هو للعبادة بقلعة انجيا ، واذن لابنه بالقيام بالملك حذراً من خروجه عنهم . وظل زعماء الثورة من الجند مرتابين من قابوس ، فكتبوا من جرجان الى منوجهر يستأذنونه في قتله ، ولم ينتظروا ردّ الجواب بل قصدوا قابوس وجرّدوه من ثيابه ومنعوه مما يتدثر به في شدّة البرد ، فجعل يقول « اعطوني ولو جلّ دابة اتدثر به » فلم يعطوه فهلك . وذلك سنة ٤٠٣ لخمس عشرة سنة لاسترداد ملكه وسبع وثلاثين سنة لولايته

القاهرة (له تتمة) محب الدين الخطيب